يوتوبيا الرجل الفقير!

طراد الكبيسي

لم يترك فينا السيّابُ «جمهوريةً» على غرار جمهورية أفلاطون، ولا مدينة فاضلة على غرار مدينة الفارابي أو القديس أوغسطين في «مدينة اللّه».. كما لم يُقدّم لنا ما هو نقيض المدن الفاضلة – يوتوبيا مضادّة – تُصوّر العالم الذي يخشى أن يكون عليه على نحو «مزرعة الحيوان» لجورج أورويل، أو «الجزيرة» لهكسلي – مثلاً.

لكن لو أخذنا «النصّ» بوصفه من إنتاج المؤلف، وأنه يدلّ على الحالة الخاصة التي وَجّه المُؤلِّفُ انتباهَهُ إلى العالم[1]، فإنّ السيّابَ ترك فينا رؤياه المرتعبة من حالة العالم القائم («مدينة بلا مطر») من جهة، ومن العالم الذي يخشى أن يؤول إليه («من رؤيا فوكاي») من جهة ثانية. ومن نماذج الصورتين وكلتاهما مُفزعة، وبنزعة مَنْ لم يغادر رومانسيّته، حاول أن يُخيِّل برؤية قَبْليّة، هيترويوتوبيا، هي ما دعاها بـ«العودة إلى جيكور».

إذنْ، فالمُتخيِّل النصّي، هنا، يمكن أن يقوم مُقاماً يوتوبيّاً. بمعنى أننا قد لا نجد المجتمع الكامل أو العالم الذي نتمنّى أن نعيش فيه، أو الذي نخشى أن نعيش فيه، لكنّنا نجد نماذج تتخطّى المعنى إلى ما يشكّل ايديولوجيا مثالية (يوتوبيا) يُجلِّيها النصُّ من خلال الانتقاءات المرجعيَّة التي يفرزها السياق، وهي خلاف «القصديّة» المُعلنة أو ما يُسمّى بالحدث.

لقد جاء النصُّ السيّابي منذ البداية ردَّ فعله على العالم، أو على عالمِهِ بأنساقه الفكرية والاجتماعيَّة والسياسية. وحين نتفحَّصُ هذا النصَّ نجد أنه: إمّا يدعم معايير يسعى لإقامتها، وإمّا مضاداً ينتهك المهيمن ويسعى لإعادة تنظيم العلاقة بين الإنسان وعالمه.

وعلى سبيل المثال، لم يكن أمام السيّاب – ذاك الشاب القروي، بحكم التربية والبيئة والقيم الريفيَّة المهيمنة (كما كُنّا جميعاً نحن المُتحدّرين من القُرى) – غير أن ينزع في حُبّهِ إلى أفلاطونيَّة مُتَوهَّمَة. فاعتقد، وباعتبارهِ صاحبَ موهبة، أنه يمكنه أن يُنظّم العلاقة الإنسانية، بعيداً عن اشتراطات المدينة وفي مقدّمتها المال والجاه. ولكنْ حين «زاحمه على حُبّهِ مزاحم وفضّلت المرأةُ التي أَحبَّ، عليه رجلاً لا يُحْسِنُ الشعر ولكنه يملك المال» اكتشف أن مثاليّته هذه مثاليَّةُ مَنْ لا يملك من حطام الدنيا غيرَ قيم وأخلاق ظنَّ أنه قادر أن يُجابه بها العالم أو يُغيّره. فكانت الصدمةُ الأولى التي تبيّن فيها الشاعرُ ضعْفَهُ. فتكسَّر ولم يُجْبَر. ثُمَّ توالت الانكسارات مع توالي الارتطامات بماديّات المدينة وأخلاقيّاتها غير الفاضلة. فتحول عن صورة العالم كما يريد، إلى صورة العالم كما يخشاها، تلك الصورة التي جسَّدها في مطوّلاته: («حفّار القبور»، و«الأسلحة والأطفال»، و«المومس العمياء») وفي قصائد مثل: «مدينة بلا مطر» و«من رؤيا فوكاي» و«قافلة الضياع» و«سربروس في بابل».. إلخ.

لهذا السبب، ولأنَّ صورةَ الطفولة (القرية) ظلّت ماثلةً راسخةً في ذهنهِ، وبالمقارنة بين القرية والمدينة، فقداشتدتْ لديه نزعةُ الحنين، وربّما الهروب، إلى القرية – إلى عالم البدْءِ (وفي البدء كان الفقير). فهو جوهر إنسانيّتِهِ وفاجعته في الوقت نفسه.

على أية حال.. إذا أمكننا أو جاز لنا، أن نعتبر «الجيكوريّات» محاولةَ السيّاب في إقامة يوتوبيا، أو هيتروبوتوبيا مغايرة – رغم استحالتها كما سنلاحظ – فما هي الصورة المثاليّة، المخيَّلة لجيكور – كعالم متكامل، أو فردوس أرضي ينعم فيه الإنسانُ بالراحة والطمأنينة؟ وهل يمكن اعتبارُها «العالم» الذي يُحقّق الحياةَ المثلى للإنسان، أم هي الرَّحِمُ الذي يودُّ المرءُ الاختباءَ فيه هرباً من جحيم الآخر/ الخارج؟

لقد جاءت عودةُ السيّاب إلى جيكور – كما قلنا – بفعل عاملين رئيسين. الأوّل: مزاحمة المدينة وصَدّها لهذا الريفي الذي لا يُحسن، ولا يملك، من الحياة غيرَ قول الشعر. وليس بالشعر وحده يحيا الناس في المدينة. فكان هذا الخلل في التوازن بين المادي والروحي، أَنْ سَحَقَ الماديُّ الروحيَّ في كينونة السيّاب.

والعامل الثاني: هو النزوع الرومانسي المتأصّل إلى عالم الطفولة والبراءة والبساطة. فكانت «جيكور»، في وعيه ولاوعيه،

(١) يُنظر مقال فولفغانغ آيزر: «آفاق نقد استجابة القارئ» مجلة **الثقافة الأجنبية** العدد الأول ١٩٩٤/ ص ٥.

دائماً هي العالم المضاد لكل ما هو ملوّث - إنْ لم تكن هي الطُهْرُ والحياة ذاتها!

لكنّ مشكلة السيّاب وجيكور معاً، أنهما كلاهما بات مقتولاً، ملوّثا. فالسيّاب قَتَلَتْه ولوّثَتْهُ المدينةُ، كما أحاطتْ بجيكور دروبُ المدينة ولوّثتها، وبات مستحيلاً إعادتهما إلى الطهارة البِكر. فالقرية (جيكور)، ونتيجة لما حصل من تغييرات وعدوان المدينة عليها أخلاقياً ومادياً، لم تعد المكانَ الذي يُحقّق حُلمَ الإنسان بالكمال. لقد انفرطت العلاقاتُ الاجتماعيةُ القديمة، واستشرت الأهواءُ الذاتيةُ والمصالحُ الفردية، وبات ما يحكم حياةَ الناس ومسارهم في القرية مماثلاً إلى حدٍ كبير لما يحكم حياة الناس ومسارهم في المدينة. بل وبفعل وسائل الاتصال وتشابك العلاقات والمنافع المادية المتبادلة والتنامي العشوائي للمدن والقرى في عالمنا الثالث، أصبح الفارقُ ضئيلاً جداً بينهما: مدن كالقرى، وقرى كالمدن... هذا إذا لم نقل - كما يقال - إنّ العالم قد بات بأكمله أشبه بقرية صغيرة.

فضلت المرأة التي أحب عليه رجلا لا يحسن الشعر ولكنه يملك المال!

***

ينزع السيّاب في بناء «يوتوبيا جيكور» إلى مُقاربة شبه نصيّة لأسطورة تموز وعشتار البابلية: موتٌ، فبعثٌ، فنشور. لكنّ السيّاب، كما هو في عموم مساره الفكري، يبدو دائماً منفعلاً، مشوّشاً، سريع الاستجابة للأحداث التي عصفت بالاستقرار الفكري والوجودي للفرد العراقي في عقْدَي الخمسينات والستينات من هذا القرن. وكان حظُّ السيّاب منها كبيراً: مرضٌ، وإحباطات سياسية وفكرية ومعاناة حياتيّة طالتْ حتى لقمة العيش.. لذا فـ«الجيكوريّات» التي تمتد لمرحلتين من حياة السيّاب وتاريخ العراق (بعضها في الخمسينات في عهد النظام الملكي، وبعضها الآخر في الستينات بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في النظام الجمهوري) تتخلّلُ الأسطورةَ البابلية دون أنْ تُعيدَ تركيبتها الأساسية، معنىً أو مبنى.

فقدت جيكور براءتها، فكانت العودة إليها مثل عودة الابن الضال ولكن إلى بيت أصابه الخراب!

في المرحلة الأولى، جيكُور ميتةٌ لا أمل في قيامتها: فهي صحراءُ تزفر الملح.. عطشى.. لأنّ الإنسان، باني الحضارات والمدن، «أسَفٌ من نفسه وانهار انهيارَ العمود»، «حُلمُه الخبزُ والأسمالُ والنعلُ واعتصارُ النهود».

لكن مع هذا، ومن قبيل التشبُّث بالأمَل وتحدّي النظام الملكي والبطولة الدون كيشوتيّة - ربّما - يصطنع السيّابُ لنفسه، دورَ المخلِّص:

«جيكورُ.. ستولدُ جيكورُ:
النُّورُ سيورقُ والنُّورُ.
جيكورُ ستولدُ من جُرْحي،
من غصّةِ موتي، من ناري.
سيفيضُ البيدرُ بالقمح
والجرْنُ سيضحكُ للصُبح».. إلخ.

.. رغم أنه يعاني الموتَ والكراهيَةَ وضعفَ الوسيلة، ولا بعثَ مع هذهِ ولا قيامة.

لقد بدا السيّاب أعزلَ، مُنهكاً، مرتعباً حين بدا له العالَم، آنذاك، أشبه بالكابوس المرعب الذي يكاد يُطبق على الروح بأذرعه الأخطبوطية الهائلة. ولكنه مع ذلك أبقى باب الخلاص مفتوحاً ما دامت الحياةُ لم تتوقّف؛ وعشتار التي لم تصلح حبيبةً مُساعفةً قد تكون أمّا ناهضةً لنجدةِ وَلدِها.

وهكذا في المرحلة الجيكورية الثانية، تتجلّى جيكور - الأُمُّ: «بابَ ميلادنا الموصول بالرَّحِمِ». فهي أفياء من الشجر، و«زمن» يمشي بنا، أو نمشي به.. وهي - رُبّما - «وفي خاطر اللّه..» من قبل أن توجد في الوجود المنعدم.. فهي أقرب إلى «الجنّة» التي خلقها اللّهُ قبل خلقهِ آدم، ليسكن فيها آدم.. ثمّ يرتكب الخطيئةَ ليُطرد منها.. فهي، إذنْ، المواجهةُ بين الإنسان وقدرهِ، أو هي الملاذ الذي نهرب إليه من قسوة الحياة[٢].

لكنّ جيكور من جهة أخرى، تظهر عجوزاً ولّى صِباها، وميتة كَمَنْ ضربها زلزالٌ. فلم تبق سوى أطياف ذكريات لحبيبات، هُنّ الأخريات مجرّدُ أسماء (هالة، وفيقة، إقبال). لقد رأى السيّابُ في جيكور مأساتَه كما هي مأساتها، مُمثّلةً بالصراع بينها وبين القدر الذي يعمل على تهديمهما، دون أن يستطيع هو ولا هي أن يفعلا شيئاً. فجاهَدَ في أن يقيم حالةً من التوازن بين الداخل والخارج، بين المادّي والمثالي، ولكنْ بعد فوات الأوان. فجيكور فقدتْ براءَتها البِكْر، وتلوّثت وسُدّتْ عليها جميعُ المسالك.. وهكذا جاءت «العودةُ إلى جيكور» مثلَ عودة الابن الضال، ولكنْ إلى بيتٍ أصابَه الخرابُ، فهو خرائب وأطلال.. أو عودةِ الولد إلى أمه، فإذا هي لا رَحِمٌ يُدفئ ولا ثَدْيٌ يُرضع.. أو عودةِ المرتدّ إلى ربّهِ، ولكن بعد أنْ قامت القيامةُ ووُضعت الأقلامُ وجفّت الصُحفُ!

وهكذا باتتْ «جيكور» أقربَ إلى اليوتوبيا المستحيلة[٣].. يوتوبيا الرجل الفقير الذي نَعسَ ونام عند بوابات «إرم» ظنّاً منه أنّه ! ماتزال على حالها، في حين أنّها اختفت من الوجود.. وباتت في العَدَم!

بغداد

(٢) ديوان **المعبد الغريق**، قصيدة «أفياء جيكور».
(٣) كتابنا **النقطة والدائرة** - بغداد ١٩٨٧، مقال: «جيكور السيّاب واليوتوبيا المستحيلة».